المحاضرة: 04 نظريات سوسيولوجيا الفن

مقدمة: لقد استخدم علماء اجتماع الفن الفن كمادة معرفية لدراسة التطور الاجتماعي والفكري والذوقي لهم. لذا فهي إحدى الظواهر الاجتماعية السائدة في المجتمع، لهذا فقد ظهرت إرهاصات نظرية النظرية هي دراسة لموضوع معين دراسة عقلانية ومنطقية من أجل استخلاص مجموعة من الخلاصات والنتائج. ومن أبرز الرواد المنظرين في المجال الفني:

1) نظرية ابن خلدون (1332م-1406): يرى ابن خلدون أن الابداع الفني صفة مكتسبة وليست موروثة عند الفنان إذ يقول في هذا الخصوص: والملكة صفة راسخة تحصل عند استعمال ذلك الفعل ونكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته. ثم وضع ابن خلدون شروطا بتهيئة الفنان نفسيا وجسديا تؤهله لتقديم انطباعه الفني وهي:
   - قناعته بموضوع عمله الفني
   - تعلقه النفسي بموضوع عمله الفني
   - أن تكون قريحته متنشطة بلذة سارة
   - بعد نهوضه من نوم عميق
   - جمال مكان عمله
   - فراغ معدته من الطعام (إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة)
   - الخلوة

   كما تكلم عن الفن من منظور الجمال والتناسب.

حيث ذكر ابن خلدون ما يلي: لا بد من الخلوة والسعادة المكان المنظور فيه من الحياة والأزهار وكذا المسموع لإشارة القريحة وذلك بترفيعها وتنشيطها بالمسرات ثم مع كل هذا شرط أن يكون على نشاط وحيوية وحنين الأوقات لذلك البور عند الاستيقاظ من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر، كما أن قوة الملك وسلطانه تتدعم الاهتمام بمكانة الفنانين في السلم الاجتماعي حتى يتنفس للحاكم المباهاة والافتخار أمام الدول الأخرى وقد أشار بن خلدون إلى وجود نوعين من الفنون الأولى سماها بالفنون الكمالية والثانية بالفنون الضرورية باعتبار أن الفن يؤدي رسالة هامة في المجتمع.

في هذا الصدد يحول الشاعر أبو نواس

تأمل في نبات الأرض وإن ظر ونظر إلى ما آثار ما وضع المليك

عيون من لجين بأبصل هي الذهب السبيك بأبصار

شاهدات بأن الله ليس له شرك

لجين: الفضة، أو ماء الفضة

القريحة: الطبيعة التي جبل عليها نقول ما جادت به قريحته أي ملكة. الملكة التي سيضيع بها الانسان ابتداع الكلام وإبداء الرأي. ويقال القريحة هي أول ما يخرج أحرج منها من الماء حين تحفر.

2) نظرية فيكو الإيطالية: (1668-1744)

تعتبر هذه النظرية الفن ظاهرة اجتماعية ينطبق عليه ما ينطبق على المجتمع بشكل عام، لذلك الفن يخضع لنفس القوانين التي يخضع لها المجتمع كله، وحسب رأي فيكو أن المجتمع البشري والفن مروا بثلاث مراحل:

أ) مرحلة الآلهة: حيث ساد الرعب والخوف مما دفع الناس إلى تحور الأرواح الخفية لذلك تشعبت عقلية الانسان وكذا الفن بروح الخرافة وأصبح فنا.

ب) مرحلة الأبطال: حيث كان الفن هو الوسيلة لتمهيد الأبطال وأعمال السادة الأحرار وهذا ما نجده في الفن اليوناني والروماني.

3) نظرية أوكست كونت (1798-1857)

يقول أن الفنون الجميلة مرت بمراحل تطور الفكر الإنساني اللاهوتي الميتافيزيقي الوضعي، فالمرحلة الأولى سماها بالتقديس الأمكن بوصفها أول ظهور لا هوتي، وقد نشأت كل الفنون الجميلة في تلك الحقبة وكان السرك هو الطور الثاني للمرحلة اللاهوتية واستخدمت الفنون لترجمة هذه الفلسفة الدينية للناس بشكل حسي.

4) نظرية كارل ماركس (1818-1883)

تؤكد نظريته على أهمية البيئة خاصة الاجتماعية والاقتصادية في تحديد الخصائص الأساسية للفن. وحسب رأيه أن طراز الفن ونوعيته في أي زمن لا ترجعان إلى أي إلهام خارق للطبيعة أو شيء فطري، بل أن الأحوال الاجتماعية تستطيع أن تهيء للفن موضوعاته واتجاهاته العامة.

5) نظرية أرنست كورس ألماني (1893)

هو أحد علماء الأنتربولوجيا (علم الانسان) له مؤلف في بدايات الفن دعا فيه إلى مزيد من الاهتمام بالفن القديم لا لدوره الثقافي فحسب ولكن بسبب بساطته كذلك.

6) نظرية ايميل دور كايم فرنسي (1858-1917)

يرى أن الفن ظاهرة اجتماعية وكأنه نتاج نسبي يخضع لظروف الزمان والمكان وهو عمل له أصوله الخاصة به، وله مدارسه، وهو اجتماعي أيضا من ناحية أنه يتطلب جمهورا يعجب به ويقدره، لهذا فإن الفنان حسب رأي دور كايم لا يغير عن نفسه فقط بل عن بحث أي عن المجتمع بكامله، كما أن الأصالة الفنية عن الاجتماعيين هي أن يدخل الفنان على التراث الفني للمجتمع تعديلات وتطورات لم تكن معروفة من قبل ولكنها مع ذلك موجودة في المجتمع، كما ذهب دور كايم إلى أن الدين كنظام اجتماعي هو الأصل في نشأة الفنون كلها.

7) نظرية ماكس فيبر (1864-1920)

فيلسوف وعالم ألماني وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث: كان يعتقد أن الثقافة والفن يؤديان دورهما في تشكيل المجتمع وقيمه. لقد رأى الثقافة والفن كوسيلة تعبر من خلالها الأفراد والجماعات عن تجاربهم وعواطفهم الذاتية، كما يذهب إلى أن الثقافة والفن ضروريان لفهم تعقيدات الحياة الاجتماعية، حيث يقدمان نظرة ثاقبة للتجارب الفردية الجماعية للناس داخل المجتمع.

خلاصة: يتضح مما سبق ذكره أن بدايات التناول السوسيولوجي لظاهرة الفن بدأ بشكل محتشم مع بعض رواد علم الاجتماع، ويمكن الجزم أن التناول السوسيولوجي لظاهرة الفن كان مع بداية اهتمام مدارس علم الاجتماع به.